صخرة العطش

قصة بقلم علي عيسى

كانت قرية صغيرة معظم بيوتها من الطين ، وكان يمتد امامها سهل فسيح ، والى الشرق منها كانت تقوم هضبة صخرية في اعلاها صخرة كبيرة ترتكز على عنق حجري رفيع ، فكانت تبدو لمن ينظر اليها كراس افعى .

وكان لهذه الصخرة قصة ... تتلخص في ان معظم سكان القرية يعتقدون ان هذه الصخرة مسحورة .. وتحرسها افعى لا تموت !

وكان الجميع يعلمون ان تحت الصخرة المسحورة يجري نهر كبير .. ولكن احدا منهم لم يجرؤ على استغلال هذا النهر ، فكانت مياهه تغوص في جوف الارض .

وحدث ان مر بالقرية رجل غريب وسمع بقصة الصخرة ، فقال لهم ان الافعى ـ حارسة الصخرة ـ لاتموت الا اذا ذبح على الصخرة رجل اسمر ضخم .. ومسح بدمه على عنقها .

لم يكترث احد لما قاله هذا الغريب ، ومرت سنة .. سارت الحياة في القرية سيرا عاديا ، وفي السنة التالية انقطع نزول المطر ، وجفت المزروعات .. وبدأ التذمر ينفث سحبه القاتمة في سماء تلك القرية .

وتذكر الجميع ماقاله الغريب .. واحسوا بالحاجة للنهر الذي يجري تحت الصخرة ، ولكن ! من اين لهم هذا الشاب الاسمر الضخم ؟!

كثيرون في القرية سمر وضخام ..! ولكن من منهم يختار الموت بارادته؟ وبدا كل شاب ينظر الى وجهه .. ان سمرته تعني الموت ! ولكنه موت شريف ! القرية في حاجة للماء .. والارض لن ينبت الربيع فيها بلا ماء !

العطش يختار ضحاياه في كل يوم من الحيوانات .. المزروعات ومن البشر ! لماذا لايموت احدهم فيغرق بموته العطش والجفاف وينبت بدمه العشب والحياة ؟

كل شاب كان يحس انه مطالب بالموت .. ففي موته حياة الجميع! لن يعيش احد بلا ماء !...

شباب كثيرون كان الحماس يلقي بايديهم خناجر حادة عندما يرون اطراقة الذل تنشر في وجوه الاطفال والنساء صفرة الاستسلام والموت. كان الواحد منهم يحمل الخنجر بيده وينطلق الى الصخرة الملعونة .. ولكنه كان يحس بتخاذل واشمئزاز مروع عندما تلتقي عيناه بالعنق المرعب .. فيعود دون ان يعلم به احد .

ومرت اشهر ، وما زال منجل العطش يحصد الضحايا بلا رحمة ...

وكان يعيش في سقيفة قريبة من الصخرة شاب فقد اباه وامه وهو طفل .. وعاش على ماكان يقدمه له المحسنون من اهل القرية ..

وكبر هذا الطفل وكان يدعى « خالد » وبدأ يشتغل مع الفلاحين في الارض .. وجاء العام المشؤوم ويبس الزرع .. لم يجد خالد عملا يقوم به ، ولم يكن ليستطيع وهو في هذه السن ان يطلب من غيره طعامه.. كما ان القحط لم يبق للمحسنين مايجودون به .. فانزوى في سقيفته لايخرج الا اذا جن الليل .

وفي ليلة مظلمة خرج خالد من سقيفته وهو لايدري اين يذهب ، ووجد نفسه دون ارادة منه يجلس على الهضبة التي تقوم عليها الصخرة المسحورة . ونظر حوله لم يجد شيئا اخضر مع ان الفصل كان ربيعا، واحس باختناق في حلقه .. وتذكر قصة الغريب .. وبدأ يفكر :

هل صحيح ان نهرا سينفجر من تحت هذه الصخرة اذا ماذبح عليها رجل اسمر ؟ ان هذا خيال .. بل وهم ، ان صخرة كهذه لايمكن ان يزحزحها دم رجل !

ولكن .. ربما كان صحيحا ما قاله الغريب ! ربما انهارت .. ربما كانت غير متماسكة .. ان عنقها رفيع ..!

وعاد بافكاره الى طفولته وتذكر كيف فقد اباه وامه .. تذكر كيف هب اهل القرية يقدمون له كل ماكان يحتاجه .. كان كل واحد منهم يعتبره ابنا له ، كان اهل القرية كلهم طيبين .. يتعاونون في السراء والضراء .. وقد نال منهم كل عطف ، فلماذا لايضحي بنفسه في سبيل هؤلاء الطيبين ؟!؟

ان دمه ولحمه من ارض هذه القرية العطشى !

اصبح كل فرد في القرية مثله تماما عندما كان طفلا .. كلهم في حاجة !

وبدأ خالد يحس ان مصير الجميع متعلق به .. لماذا لايهب دمه لارض قريته العطشى .. لماذا لايموت ليحيي الجميع ؟؟ لو اغرق بدمه عنق الصخرة لفاض الماء .. ولغمر السهل ولاخضرت الارض .

واحس خالد بقوة جارفة تدفعه الى البيت .. وعاد بعد قليل وفي يده سكين حادة .. واقترب من الصخرة ، واستلقى بجانب عنقها .. لم يشعر بالخوف .. لقد آن لدمه ان يعود للارض التي غذته ..! وغرز سكينه في صدره واحس بالدماء تجري الى عنق الصخرة ! سينطلق الماء ليغمر السهل .. كما انطلق دمه يغمر الصخرة !.. وبدأ يحس وكان مياها باردة تغمر جسده .

وفي اليوم التالي كان اهل القرية يجتمعون حول الصخرة وفي عيونهم دموع تغلي بالحقد !

لقد مات دون ان ينطلق الماء !

واقترب شيخ القرية ونظر في وجه خالد وتمتم .. لم يكن اسمر .. لم يكن اسمر ..

وسمعه احد الشباب وكان صديقا لخالد فصرخ في وجهه .. ان هذا وهم ان هذا وهم ...

سنحطم الصخرة وليحدث مايحدث .

فامسك به الشيخ برفق وقال : اهدأ يابني ان هذه الصخرة لن تتحطم بسهولة ... دعنا ندفن الميت !

فصرخ الشاب : لن ندفنه قبل ان نحطمها .. يجب ان نحطمها .. ونظر في وجوه اهل القرية وصرخ فيهم : الى الفؤوس والمعاول .. سنحطمها في هذا اليوم !

وانطلق بعضهم الى القرية وعادوا وفي يد كل منهم فأس تتلظى وانهالوا على الصخرة ضربا وتحطيما ...

ومرت دقائق والصمت يغمر الجميع وضربات الفؤوس تمزق الصمت والصخر ... وتدحرجت الصخرة جارفة امامها صخورا صغيرة كثيرة .

وفجأة انفجر النهر وانطلقت المياه تغمر السهل الفسيح !!

عمان — علي عيسى